# صوفية العنونة وتطويع اللغة الصوفية في ديوان "الوهج العذري لـ"ياسين بن عبيد

**أ/ سعيد شيبان**
**جامعة بجاية**

**Abstract :** The present study tests the hypothesis according to divine love which is illustrated in the poetic work of YassineBenabid. It is through woman, this eternal beauty of the divine beloved, that he expresses a spiritual force and alchemical fire completely devoted to the inner knowledge. Through this title and these poetic language forms, Benabid is guided by the sufism and galvanised by cosmic love.

**Key words:** divine love, poetic work, sufism, poetic language.

أصدر ياسين بن عبيد باكورة أعماله الشعرية (الوهج العذري) عن دار المطبوعات الجميلة ، الجزائر ، 1998. تتشكل البنية اللسانية للوهج العذري من وحدتين أساسيتين هما: الوهج والعذري ، مسند ومسند إليه (اسم + صفة) ، «فالوهج من وهج ووهجان ، شديد الحر... والوهج والوهَجُ والوهجان والتوهّج ، حرارة الشمس والنار من بعيد... ويقال وهجت النار إذ اتقدت ، والوهج والوهيج ، تلألؤ الشيء وتوقده ، ونجم وهّاج وقّاد»(ابن منظور ، 1993 ج2/ص401).

أما العذري نسبة إلى قبيلة عذرة* ، فكان الحب عندهم يرادف معاني العفة والطهر ويرى لويس ماسينيون (L.Massignon) أن الحب العذري» تيمة أسطورية تمجد قبيلة بدوية يموت فيها العشاق حبا –عن رقة عاطفية وعهد على العفة القصوى» (لبيب ، 1987 ، ص79). فالشاعر يختزن حبا وقادًا يفيض به على محبوبه (معبوده) ، فَيسمو به إلى النموذج الخالص والمثال ، ليغدو هذا الحب أكثر إنسانية وامتلاء وحضورًا.

لقد منح الشاعر هذا الحب الوهاج صفة العذرية التي من شأنها تكثيف التجربة العاطفية ، وتوليد حساسية مفرطة في التعلق بذات المحبوب ، فالطبيعة الإخبارية للمسند إليه(العذري) توحي بسمات هذا الحب الذي يعتري الشاعر في أسمى صوره ، فهو» حب خفي

تراكم إلى أن بلغ الذروة ، فانفجر مشتعلا متوهجا ، وهذا الحب المتوهج هو حب طاهر نقي عفيف خال من كل الشوائب المادية ، والأغراض الحسية» (هيمة ، 2014 ، ص256).

إن هذه الطاقة العجيبة التي يختزنها الشاعر ، ويفيض بها على المحبوب ، من شأنها الإخبار عن نوعية الحب الذي يعتريه ، فهو حافل بالروح العذرية التي تصاحبها حساسية مرهفة في التعلق بذات المحبوب وروحه الجميلة الساحرة.

فهذا الوهج العذري بالنسبة للشاعر ، يجسد الظمأ الأبدي والحنين إلى عوالم المطلق فتغدو المرأة وسيلة لترجمة لواعجه وأشواقه إلى الذات العلوية.

فالمتصفح لقصائد هذا الديوان ، سيجدها تطفح بهذه الترانيم واللطائف الغارقة في الحب الإلهي بيد أن الشاعر» ينطلق في تجربته من الرؤية الإسلامية للشعر والتي تقوم على الشمولية والعمق ، كما تقوم على استجلاء وكشف فيوضات الروح المستترة خلف الجوامد والعوائق»(هيمة ، 2000 ، ص53). كما أن عناوين القصائد في الديوان لا تحيد عن المرجعية الصوفية مثل: تراتيل المشكاة الخضراء ، الفجر الأخضر ، في محراب الروح... ، فهي عناوين من شأنها إبراز القيمة الفكرية والفنية لتجربة الشاعر التي اختارها لتكون علامات دالة على هذه الروحانية الصوفية التي تسم شعره وتمنحه هويته.

وقد أشار الشاعر في مقدمة الديوان التي عنونها بـ(في الطريق إلى... الوهج العذري) إلى الطابع التواصلي والروحي لتجربته التي تنزع في حركة دائمة نحو الحياة والوجود من خلال فعل الحب الذي يمكنه من الذوبان في الجمال الإلهي المطلق.

يقول ياسين بن عبيد في مقدمة ديوانه: « **ولسلطان الروحانية الأثر الأعتى في هذه المرحلة التي أشق فيافيها على جناح يصفق وجدا ، وما انبسطت مقابضي إلا بعد الذوبان تحت هذا الأثر الجامع**»(بن عبيد ، 1985 ، ص5). وقد وجدنا لهذا الاعتراف أثره على شواغل النصوص الشعرية ولغتها ومناخاتها العامة في الديوان.

فالشاعر في هذه الرحلة الصوفية ، يستعير ببيداغوجيا الحب على النحو الذي أرسته المرجعية الصوفية ، ساعيا إلى الارتقاء بذاته نحو الجمال المطلق ، لتتبدى لنا شخصيته المتشبعة بالمعاني الإنسانية ، فينتقل من مقام إلى آخر في رحاب الحب والعشق الإلهي ليترصد آثار الجمال الإلهي في كل الكائنات وعبر كل اللحظات التي يعايشها بكل تفاصيلها. يقول في قصيدة "تراتيل المشكاة الخضراء":

يا أنتِ.. يا عذبى الوصال.. تواترتْ ❖ عنبًا.. ووردًا.. وامتلاء مشاهدِ!

ذُوبي على شفقي المـــضرّج فضةً ❖ وامضي بسِرّي من رواعش واجدِ

كوني.. أكن.. وكما تكوني.. كـائنٌ ❖ أنا في دروب العشق أتلو شاهدي(بن عبيد 1985 ، ص17). وفي مواضع أخرى يلوح الشاعر إلى المعاناة التي يكابدها في سفره الإلهي ليصف مشاهد التوتر الذي يسم معاناته الوجدانية ، فنراه يصدح بالشكوى والعذاب ، فيقول:

سقتنا من هواجرها العذابا ❖ وهل تخشى.. معذبةٌ.. عتابا ؟!

(بن عبيد ، 1985 ، ص22).

ولكي يسمو الشاعر بالتجربة إلى مستوى الشمولية ، فهو يهيئ دواعي الغبطة والفرح من خلال تذوق حلاوة السكر واستدامة نشوة الشرب للتزود بالمعرفة الإلهية ، فيقول:

تراءت.. في نـــوادينا.. شهـابـــا ❖ يقل الروعة الكبرى.. التهابا

تهادت.. في يدها الكأس نشوى ❖ أدارتها حنينا.. واجتذابا

ولفّت.. من حـــــواليناً.. عراها ❖ ونحّتْ.. دون مقلتنا.. النقابا

(بن عبيد ، 1985 ، ص22).

ويرى الباحث عبد الحق منصف أن الحيرة التي تنتاب الصوفي أثناء رحلته الروحية يتجاذبها مستويان أساسيان(منصف ، 2007 ، ص42):

- مستوى الحلم بتحقيق الاتصال بالدائرة المطلقة للجمال الإلهي. وغالبا ما تقدم النصوص الصوفية في هذا المستوى صورة مثالية عن الفناء كما ينبغي أن يكون وأن يتحقق في حياة الصوفي.

- مستوى واقع التجربة ، وهو الإحساس باستحالة ذلك الاتصال نظرًا للبعد الأنطولوجي بين الذات الإنسانية والذات الإلهية ، وتظهر في هذا المستوى الصورة الفعلية التي يعيشها الصوفي ويحكي عنها.

وتأسيسًا على ما سبق ، وجدنا الشاعر يعبر عن الأوحال والعوائق التي تعترض طريقه فتبدو تجربته في قمة التوتر بين الاتصال والانفصال وبين الحلم والواقع ، مما يضفي عليها طابع الاغتراب الذي يسم عالمه الشعري ، يقول في قصيدة (على أعتاب الظمأ العاتي ):

تروع الظلال غوائر وجدي ❖ فأهفو إلى الرُبوة الساهرهْ

لعلي أذرب فيهـــا شفاهي ❖ وأنسى هناك الدُنى البائرهْ

وألقى السنا يستحث مسائي ❖ إلى الفجر يدعو الخطى الحائرهْ

وأسلو سلوّ الغريـــب يلاقي ❖ حميما.. بأضلعه الفائرهْ (بن عبيد ، 1985 ، ص41)!.

وإذا عدنا إلى هوية العنونة في الوهج العذري ، سنجد بأن لفظة الحب استعملت في سياقات مختلفة وباشتقاقات عدة تبين الطابع الغزلي للمعجم الذي اتكأ عليه الشاعر ، فألفينا ألفاظا كثيرة تنحو منحى عذريا أكثر منه حسي ، فالشاعر يميل إلى تصعيد فعل الحب ليكون في ذروة النشوة ، ليرتفع به نحو الأجواء العليا ، فتبدو روحه الخالصة وهو يستعير ألفاظ العذريين في تبيان إخلاصه الأبدي لمن يحب ، محتقرا واقعه المادي ، فيستبدله بواقع مثالي يراه بديلا لواقع مرير. يقول الشاعر في قصيدة "بانت سعاد":

أهواك غضرى وأهوى الفجر منتزعا ❖ من ناظريك.. يعيد الأرض.. مرتبعا

عذراء.. من رعدة النجمين.. قـادمة ❖ نورٌ.. ونارٌ.. على الأحقاب قد سطعا

إلى أن يقول:

أهواك ليلا.. سكنت اليوم سدّته ❖ أرُودُ فيك فجاج الحلم.. منقطعا

ومُلهما سفـــــري العذريَّ منعتقًا ❖ أقاطن الحزن.. في نجواك.. والرِّيعا (بن عبيد 1985 ، ص24).

وهكذا تبرز شخصية الشاعر العاشقة ، فتفصح عن حياة عاطفية وحب عذري تتجاذبه علاقتان: علاقة وصلية ، وعلاقة فصلية يتخللها حرمان طويل. فهذه السمة العذرية التي وسم بها الشاعر سفره الروحي من غير مراوغة وتضليل ، ستسمح للمؤول بمراعاة ما سماه محمد مفتاح بمبدأ "التأويل المحلي" الذي من خلاله» يعير الانتباه إلى السياق المحيط باللفظ أو بالجملة ، ووحدته ، والمحاذاة الزمانية والمكانية ، والعلاقات المعجمية ، وتفضيل الأقرب على الأبعد ، ومقصدية الشاعر»(مفتاح ، 1990 ، ص60).

فالشاعر يحاول التخلص من ربقة القيود ، ومن ضيق الزمان والمكان إلى فضاء أكثر رحابة واتساعًا ، فتغدو المحبوبة وسيطا جماليا للتحليق عاليا في رحاب الوجود الباقي.

وحتى لا نسقط في مغبة إسقاط كل ما تَراكَم من تجارب صوفية على ديوان الوهج العذري ، فنقوّل الشاعر ما لم يقل ، يمكن لنا القول إن الشاعر ارتاد عوالم التصوف من خلال تمثلها لغويا وذهنيا في رحلة البحث عن الكينونة التي تفكه من سجنه الترابي ، وتمكن ذاته من تحقيق المعادلة بين متطلبات الروح ومتطلبات الواقع ، فراح يسترضي هذه الذات القلقة بالكلمات ، وينسج لها بخياله الصور والتراكيب والرموز التي تعكس ما في قلبه من حرقة وآلام. أما إذا بحثنا عن الوشائج التي تربط هذا الحب الوهاج المتسم بالعذرية والعفة والطهر بعالم التصوف ، فيمكن القول إن الحب الروحاني الذي يفصح عن أسمى النزعات الروحية في

الإنسان ، ظل الهاجس الأكبر للمتصوفة والعذريين -على حد سواء- من جهة ، ومن جهة أخرى فإن التجربة العذرية والصوفية تحاولان النفوذ إلى بواطن الأشياء من خلال صقل وجدان الإنسان والرفع من قيمته ، لتشكيل نموذج فريد للمرأة التي تتعالى عن النظرة المادية أو الشبقية ، واستبدالها بنظرة سامية تزاوج بين الحب والإجلال والشغف والعبادة. وببساطة فإنها تلك النظرة الفنية» التي تعد المرأة كقطعة فنية من فنون السماء يلتمس لديها من الوحي والإلهام ما تضن به ينابيع الوجود...وأن يحس بما وراء الجسد من روح جميلة ساحرة تحمل بين جانبيها سعادةً الحب ومعنى الأمومة ، وهما أقدس ما في الوجود»(الشابي 1975 ، ص72).

وقد أشار الشاعر في مقدمة الديوان إلى ثلاث ركائز كانت بمثابة الدعائم التي شدت أزره في سفره الروحي إلى العوالم التي تؤرقه» هن ثلاث: أمي والطفولة ، والروحانية ، يستقيم بهن تناول المجموعة ، وينوء اعتبارهن بالقراءة الصائبة ، الموفية ، ويسهَّل على القارئ تفسير الإحالة على الأنثى في شعري!»(بن عبيد ، 1975 ، ص4).

فهذه الروح الملتهبة بوهج الرموز والإشارات المنطوية على معاني الحب ، لا هم لها سوى تحقيق الصلة بالمطلق ، والسمو فوق كل الموجودات ، والعمل على جمع كيان الإنسان في وثاق المحبة التي تشكل الرباط الواصل بين التجربتين العذرية والصوفية.

ويرى الباحث هنري كوربان (H.Corbin) أن بعض الصوفيين» اعتبروا الحب العذري نموذجًا مقترحًا على المحب الصوفي الذي يتوجه بحبه إلى الله. وفي هذه الحالة فإن هناك نقلا للحب ، وكل شيء يحصل كما لو أننا ننتقل من موضوع بشري إلى موضوع إلهي» (لبيب ، 1987 ، ص73).

فياسين بن عبيد أدرك ضرورة تطويع لغة الرموز الغزلية ، بما تتيحه من إمكانات تعبيرية تسمح بترسيخ القيم الروحية والمدركات الباطنية المنطوية على معاني الجمال والجلال والقداسة. ولذلك شكلت المرأة في عوالمه الشعرية مجالا خصبا لابتداع معان ورموز لا يدرك كنهها سوى العاشق الصوفي الذي عايش التجربة واستوعب الجهاز المفاهيمي للتصوف وأسرار الوجود. وعلى صعيد آخر اتكأ على الأنوثة كاستراتيجية تعبيرية وجمالية لإنتاج المعرفة وتوسيع دوائر الامتلاء بالحب الإلهي ، فأبانت نصوصه عن خصائص استيطيقية تنم عن ذوق فني راق مستوعب لأوهاج الحداثة وصيرورة الذات في رحلة انفلاتها من أسر القصيدة المغلقة.

وبناء على ما سبق ، يمكن النظر إلى هذه العلاقة التي تجمع بين العاشق العذري والمحب الصوفي حيال الجمال ؛ فالأول يحمله الجمال على العفاف فيفنى من أجله إلى أن

يموت. أما الصوفي فينظر إلى رمزية الجمال الإلهي كمعبر لرمزية الجلال الإلهي ومظاهره وفق جدلية الظاهر والباطن، ليتم اكتشاف الدلالات العامة والخاصة لجمالية الكون، فيتَحد بالمطلق ويفنى في الذات العلوية. ويمكن أن نمثل لهذه العلاقة بالخطاطة التالية:

- العاشق العذري ⟵ الحبيبة = (الجمال) ⟵ العفة ⟵ الموت

- المحب الصوفي ⟵ الله = (الجمال المطلق) ⟵ اكتشاف الدلالات العامة والخاصة لجمالية الكون ⟵ الاتحاد بالمطلق والفناء في الذات العلوية.

**الإحالات المرجعية**

* قبيلة عذرة: كانت تسكن شمال الحجاز بجوار غطفان، ومن الأماكن التي يسكنونها "وادي القرى"، و"تبوك".


- ابن منظور(1993)، لسان العرب، ج2، ط3، دار صادر، بيروت، لبنان.
- بن عبيد ياسين(1985)، الوهج العذري، دار المطبوعات الجميلة، الجزائر،
- الشابي أبو القاسم(1975)، الخيال الشعري عند العرب، دط، الدار التونسية للنشر، تونس،
- كوربان هنري (1964)، تاريخ الفلسفة الإسلامية، غاليمار للنشر، باريس، فرنسا، ص280، نقلا عن: الطاهر لبيب، سوسيولوجيا الغزل العربي، الشعر العذري نموذجا،
-ماسينيون لويس، الموسوعة الإسلامية، نقلا عن: لبيب الطاهر(1987)، سوسيولوجيا الغزل العربي، (الشعر العذري نموذجا) ترجمة مصطفى المسناوي، ط1، دار الطليعة، الدار البيضاء، المغرب،
- مفتاح محمد(1990)، دينامية النص، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،
- منصف عبد الحق(2007)، أبعاد التجربة الصوفية، ط1، دار أفريقيا للنشر، الدار البيضاء، المغرب،
- هيمة عبد الحميد(2000)، علامات في الإبداع الجزائري، ط1، مديرية الثقافة لولاية سطيف، الجزائر،
- هيمة عبد الحميد(2014)، الخطاب الصوفي وآليات التأويل، ط1، دار الأمير خالد، الجزائر،